المحاضرة الثانية: الإحياء الشعري في المشرق (مرحلة ما بعد البارودي): (أحمد شوقي، حافظ إبراهيم، معروف الرصافي)

ترتبط هذه المرحلة بالنتاج الشعري لتلاميذ البارودي، نذكر منهم أحمد شوقي (1868-1932)، وحافظ إبراهيم (1872- 1932) ومعروف الرصافي (ت 1945)، واللافت أنهم بقوا محافظين على بعض الخصائص الفنية المميزة للقصيدة التقليدية، ومنها على الخصوص وحدة البيت أو الانتقال المفاجئ من الموضوع الأصل إلى موضوعات أخرى فرعية، وهو ما يفقد القصيدة تلاحمها العضوي. فتلاميذ البارودي قاموا بإتباع منهجه فحافظوا على القديم، ثم أحدثوا بعض التطوير في هذا المنهج عن طريق ارتباطهم بقضايا مجتمعهم واستفادتهم من ثقافة العصر، وبذلك تمثلوا فكر الكلاسيكية الجديدة التي تربط المضمون بالمنحى الذاتي وتأخذ الشكل من القديم.

يعد أحمد شوقي من أبرز شعراء العصر الحديث الذين تعمقوا في التراث واستوعبوا حاضر الأمة وماضيها، فعبروا عن ضميرها ووجدانها بلسان العصر، كما كان من كبار الشعراء الذين بصموا أشعارهم ببصمات خاصة، تعبر عن دنياهم وتعكس شخصياتهم ورؤاهم المتفردة، فقد كان لكل واحد منهم عالمه الخاص الذي استوعب رؤيته وموقفه الفكري، وبناؤه الفني ولغته وأسلوبه الشعري.

كما يعد شوقي من أبرز شعراء الاتجاه التقليدي خاصة من حيث صياغته للعبارة الشعرية وإحساسه المرهف بإيقاع الألفاظ وإبداعه الصور الفنية الجميلة، ورائد الشعر التمثيلي، ألف ست مسرحيات منها: مصرع كليوباترا، مجنون ليلى، ومسرحية نثرية (أميرة الأندلس)،

اشتهر أمير الشعراء بشعر المناسبات الوطنية والاجتماعية، والشعر الديني الذي خصص له العديد من القصائد منها: سلوا النبي، الهمزية النبوية، نهج البردة، كتب العديد من المسرحيات الشعرية: على بك الكبير، مجنون ليلى، مصرع كليوباترا، قمبيز، عنترة، أميرة الأندلس، الست هدى، شريعة الغاب، البخيلة، وكتب أيضا الروايات منها: عذراء الهند، الفرعون الأخير، وله في النثر كتاب (أسواق الذهب).

اتسمت أعماله الأدبية في إسبانيا بالحزن والأسى والغناء الحزين، مع أن هذه البيئة الجديدة كانت تربة خصبة للشعر، لكن شوقي لم يستقبلها بالفرح بل استقبلها بالحزن والألم بسبب بعده عن الوطن. أشهر شوقي شعره سيفا في وجه المستعمر الإنجليزي لبلاده على الرغم من كونه في المنفى، وعند عودته لم يجف مداد قلمه الثائر، ولم تنقطع أخبار بلاده عنه، فكانت الرسائل متبادلة بينه وبين أصدقائه في مصر لا سيما حافظ إبراهيم وإسماعيل صبري. وإذا كان شوقي قد تناول في ديوانه الأغراض المعروفة عند الشعراء القدامى من مدح ووصف وفخر وهجاء وحكمة وهجاء ورثاء. فإنه مع ذلك خاض في موضوع الوطنية والقومية.

اتجهت مدرسة الإحياء والبعث في طريق التطوير على يد تلاميذ البارودي، وكان على رأسهم أحمد شوقي الذي اجتمعت له عدة عوامل ساعدته على التجديد:

- إطلاعه على الأدب الفرنسي.
- إتقانه اللغة العربية واللغة الفرنسية واللغة التركية.
- دراسته للحقوق.
- مجالسته لشعراء الغرب وتأثره بالمسرح الأوربي.

مظاهر التجديد عند أحمد شوقي:

- **الاتـــــــجاه إلى الـــــــــــتاريخ**: كتب قصيدة (كبار الحوادث في وادي النيل) مستعرضا تاريخ مصر من عهد الفراعنة إلى عهد محمد علي وقال في مطلعها:

همت الفُــلك واحــتواها الــماء وحداها بمن تقـــــــــــل الرجـــــــــاء

- **استلهـــــــــــام التـــــراث الإسلامي:** مدح الرسول صلى الله عليه وسلم قائلا:

ولد الهــدى فالكائــنات ضــياء وفـــــــــــمُ الزمان تبــسم وضـــــــياء

- **الاتجاه إلى تصويـــــــر المخـــــــترعات الحـــــــديثة:** ومن ذلك قوله في وصف الطائرة:

أعقابٌ في عنان الجو لاح أم سحابٌ فرَّ من هوج الرياح

- **الاتجاه إلى كتابة المسرحيات الشعرية:** كتب شوقي العديد من المسرحيات.

كما نجد أشعار الغزل وهي كثيرة، يمتلئ بها الجزء الثاني من ديوانه، وفيها قصائد كاملة الوزن، مثل قوله:

خدعوها بقولهم حسناء والغواني يغريهن الثناء

ويقول في (نكبة دمشق):

سلام من صـــبا بردى أرق ودمـــع لا يـــكفـــكف يا دمشـــق
ومعـــــذرة اليراعة والقوافـــي جـــلال الـــرزء عن وصـــف يدق
وذكرى عن خواطرها لقـــلبي إليـــك تلفت أبدا وخـــفـــــــــــق
وبي مما رمتك به اللـــيالي جراحات لها في القلب عمـــــق

التي يمكن التصرف في أبياتها حذفا أو تقديما أو تأخيرا دون أن يتأثر معنى القصيدة العام لانبنائها على وحدة البيت وبناء القصيدة التقليدية من وقفة بكائية أو وصف فيه حسرة وألم، على أن ذلك لا ينقص من القيمة الفنية والتاريخية للقصيدة الشاهدة على ما ألم بدمشق.

كما خاض شوقي في موضوع الوطنية، ومن أمثلته قوله حين كان في منفاه:

اختلاف الليل والنهار ينسي اذكرا لي الصبا وأيام أنـــــسي
وصفا لي ملاوة من شباب صورت من تصورات ومـــــــسّ
عصفت كالصبا اللعوب ومرت سنة حلوة ولذة خلـــــــس

نلاحظ أن القصيدة تقليدية البناء، والمتمثل في التصريع القائم على التجانس الصوتي بين عروض البيت الأول وضربها إلا أنها تضمنت معانٍ جديدة متصلة بواقع الشاعر بعيدا عن وطنه، ولهذا لم يجد لنفسه بديلا عنه في واقعه.

كما أنه يبدو أكثر وطنية وارتباطا بأرضه في قوله:

وطـــني لو شغـــلت بالخلد عنه نازعـــتني إليه في الخلد نفـــــــــسي

الأثر الشعري هو في نهاية الأمر شكل إيقاعي، يسعى إلى طرح رؤية تنقل إلينا عبر جسد القصيدة أو مادتها أو شكلها الإيقاعي، ومن ثم فالنص الشعري إيقاع وتعبير يجمع بين النغم والمدلول، ويصل بين التعبير وصاحبه وموضوعه.

ويقول:

علـــــمـــوه كيف يجفـــو فجفا ظـــــالم لاقـــــيت مـــنه ما كـــفى

وفي نسيجه الشعري بما يشتمل عليه من تقديم وتأخير، وحذف وإضمار واستعمال للإيقاع، أو ما يعرف بحسن التقسيم، ومن استخدام خاص للعطف والطباق والمقابلة، ومن انتقاء للكلمات ما يدل على جلال شعره، نحو قوله:

ولد الهدى فالكـــــــــائنات ضيـــاء وفـــــــم الزمان تبـــــسم وثـــــناء

وقوله في (الهمزية النبوية):

إن الشجاعة في الرجال غـــــــــلاظة ما لم تزنـــها رأفـــة وســـــــــــــــــخاء

والحرب يبعـــــــثها القوي تجـــــــــبرا وينـــــــــوء تحت بـــلائها الضـــــــعفاء

و قوله في العلم والتعليم:

قـــم للعلـــــــم وفـــه التـــــبجيلا كـــــــاد المعـــــــلـــــم أن يكون رســـولا

أو قوله في مطلع (شهيد الحق):

إلام الخـــلف بينكم إلامـــــــــــا وهذي الضـــــجـــــــة الكبـــــــــــرى علاما؟

ويقول في (نهـــــــج الـــــــــبردة):

صلاح أمرك للأخلاق مرجعـــــــه فـقوم النفس بالأخلاق تـــــستـــــــقم

والـنفـــس من خـيـرها في خير عافـية والنـــفـــــس من شرها في مرتع وخـــــــيم

أما قوله في الرثاء فإن شوقي يؤثر العاطفة الهادئة الخاضعة لسيطرته البعيدة عن الانفعالات الجياشة الصاخبة. ومن رثائه لسعد زغلول قوله:

شيعـوا الشمـــــــس ومالوا بضحاهـــا وانحنى الشرق عليها فـــــــــــبكاهـــا

ينضاف إلى ذلك قدرة شوقي على الخروج إلى الإطار الإنساني العام وتجاوز حدود الفردية أو المحلية، والكشف عن قيم إنسانية تحمل الكثير من معاني الحكمة تشبه المقولات العامة التي تتخطى حدود الموقف أو الحدث الصغير، إلى تكثيف لحظة فكرية وشعورية.

إن هذه بعض ملامح القدرة الشعرية عند شوقي، وهي تقوم دليلا على أنه حقق دنياه الفردية واستطاع أن يسير بسهولة وحرية على طريق الإحياء والمحافظة على رنين القدامى وأشكالهم.

كما تميزت مرحلة ما بعد االبارودي بظهور الشعر القصصي والتمثيلي عند خليل اليازجي (1856- 1889)، وعزيز أباظة (1899-1972)، وأحمد شوقي في مسرحياته التاريخية الكلاسيكية ومنها مسرحيته الشعرية (كليوبترا) التي يقول في مقطع من مقاطعها الحوارية بين كليوبترا وكاهن المعبد:

كليوبترا:

أبي لا العزل خفـــــــــــت ولا المنايا ولـــــــــكن أن يسيروا بي سبيـــــــــا

أيوطـــــــــــأ بالمناسم تاج مصر وثمة شعـــــــــــرة في مفرقـــــــــيا؟

أنوبيس (الكاهن):

لتـــــــــــأت المقادير أو فلتذر تعالي كليوبترا ألـــــــق النظـــــــــــر

كليوبترا: أفـــاع؟ أبي نحها أخفها أعـــــــــــوذ بأزيس من كل شـــــــر

فماذا تريد بإحرازهـــــــــــــــن وهل يقتني عاقل ما يـــــــــــــــــضر؟

يظهر في هذا المقطع عنصر الحوار والشخصيات بلغة شعرية يلائم طبيعة الموقف عند حاكمة تخاف أن تُسبى فتُذل وهي الحريصة على ملكها وجمالها حتى بعد مماتها، وكاهن يمتهن صناعة الترياق من سم الأفاعي ويحضى في الآن نفسه بسمو مرتبته الدينية، على أن الحوارات التي تميزت بها المسرحية فنيا كثيرا ما تطول لتزداد معها صعوبة حفظها واستيعاب مضامينها حين تمثيلها على الركح، لذلك يحتاج الشعر المسرحي إلى مستوى ثقافي خاص ودراية بألفاظ اللغة ودلالاتها كي يتحقق لها النجاح.

لقد تحرك شوقي في مسرحياته بين أرجاء التاريخ فضلا عن إفادته من السير الشعبية وقصص العشاق النثرية في التراث العربي وتاريخ المماليك والفراعنة وأيام الفرس، وكان الرصيد المعروف لهذه الموضـــــوعات قد أفـــــاد شوقي في تشكيل مادة مسرحيـــــــة لها بدايـــــــة ونهـــــــاية ومكان وزمان وحـــــــــــدث وشخصيـــــــــات.

ظهرت أنواع من الشعر وليدة العصر الحديث ومتطلباته القومية ومنها ما يصطلح عليه بـــ **الشعر السياسي والوطني** الذي تردد صداه في نفوس الشعراء وأقلامهم، وهم من أبناء الشعب وصميمه ولهذا غلبت عليهم النزعة الوطنية أكثر من العصبية الحزبية. ونجد الشعر الاجتماعي بتناوله مشاكل التعليم وحركات العمال والحث على التحلي بالفضائل والدعوة إلى تحرير المرأة كل حسب ميوله ونظرته وبيئته وتناول كذلك مشكلة الفقر ليعرف هذا الشعر، بتشعب غاياته وتعدد موضوعاته، طريقه إلى الأدب الحديث.

حافظ إبراهيم (1872- 1932): أحد قادة مدرسة البعث والإحياء، ومن الشعراء الذين أسهموا في مرحلة ما بعد البارودي، أحد كبار شعراء العربية الذين كان لهم أثر واضح في تطور نهضتنا الشعرية الحديثة، فقد كان له لونه الخاص مع محافظته على القديم، وكانت له شخصيته الفنية التي ارتكزت على ظاهرتين من ظواهر الإبداع الفني، وهما عاطفته وإيقاعه، فعاطفته دافئة حارة لا تكاد تلوح كاذبة، تصدر عن انفعال فريد أصيل، وكانت هذه الظاهرة شيئا ينبع من ذاته شيئا يسكنه لأنه جزء من طبيعته التي ولد بها، لأنه من أبناء الشعب الذين يتفاعلون مع أحداث وطنه، وقد ضاق مرارة الفقر واليتم والحرمان في حياته، وأحس بآلام المحرومين والفقراء، وعبر عن معاناتهم.

لقب بشاعر النيل وشاعر الشعب، فقد سار في شعره على هدي الشعراء القدامى في التزامه بنظام القصيدة العربية بهيكلها القديم القائم على نظام الشطرين، وطرق الأغراض الشعرية القديمة التي طرقها الشعراء قبله. ولد بأسيوط بمصر على متن سفينة كانت ترسو في نهر النيل، والده مصري ووالدته تركية، فقدهما صغيرا، فكفله خاله، التحق بالشرطة، واشتهر بشعره حتى صار من أشهر الشعراء، أتقن اللغة الفرنسية وترجم رواية (البؤساء) لفيكتور هيجو، خلف ديوانا شعريا حافلا بالأغراض القديمة والموضوعات الحديثة.

تفوق حافظ في الرثاء تفوقا واضحا، ولعل رثاءه لسعد زغلول أكبر شاهد على تفوق هذه الظاهرة عنده، وهي ظاهرة الانفعال الفريد الأصيل، يقول:

إيه يا ليل هل شهـــــــدت المصابا كيف ينصب في النفوس انصـــــــــبابا
بلغ المشرقين قبل انبلاج الصبح أن الرئيس ولـــــــــــــى وغـــــــــــــابا
وانع للنيرات سعدا فـــــــــــــــسعد كان أمضى في الأرض منها شـــــهـــابا

قد يا ليل من ســـــــــــــــوادك ثوبا للـــدراري وللضـــــــــــــــــحى جـــــلبابا

وهكذا نرى كيف استطاع حافظ أن يختار من عناصر اللغة ما يحقق هذا الانفعال القوي الحار، فإذا بالشعر يجسد المصاب تجسيدا. فشعره غلبت عليه الديباجة وعذوبة الرنة الموسيقية ورقة الذوق والعاطفة على حساب التوليد والاشتقاق في المعارف وقد حببته إلى الشعب وطنيته ونزعته الديمقراطية وروحه الظريفة.

أجاد حافظ في الشعر السياسي والاجتماعي، وتفوق في الرثاء وشكوى البؤس والظلم، وله في الوصف جولات حسان، منها قصيدته التي صور بها تصويرا مؤثرا زلزال إيطاليا سنة 1908، وما صحبه من حريق وغرق وتلف في الأرواح، جاء فيها:

نبئان إن كنـــــــــــــــــتما تعلمان ما دهى الكـــون أيها الفرقـــــدان
مال "ميســـين" عوجـلت في صباها ودعـــــــــاهـــــا من الردي داعيان
خســـــــــفت، ثم أغرقـــت، ثم بادت قضـــــــــــــي الأمـــر كله في ثوان
بغت الأرض والجـــــــبال عليـــــها وطـــــــغـــى البحر أيما طغـــــيان

يقول في غرض المدح، في مدح محمد عبده:

قالوا صـــــدقت فكان الصدق ما قالوا ما كل منتـــــــــــسب للقول قـــــوَّالُ
هذا قريـــــضي وهذا قـــــــدر ممتدحي هل بعد هـــــــــذين إحكام وإجـــلال؟
إنّي لأبـــــــصر في أثناء بـــــــــــردته نورا به تهتدي للحـــــــــقِّ ضـــــلال

من خلال معنى ومبنى المقطع الشعري يتضح لنا مدى جودة التركيب وسلاسة الانتقال من فكرة إلى أخرى دونما تجاوز لإيقاع الأبيات وموسيقاها الخارجية الخاصة ببحر البسيط.

يلحظ الدارس حينما يبحث عما يتوارى وراء الألفاظ من دلالات أنها مشحونة بالحركة (دعاني، جئت، شفني، مللت) الممزوجة بالحزن على فقد علم من أعلام الأدب حتى اقترن معنى الفقد بعجز الشعر عن استيفاء حيثيات الموقف وتفصيلاته.

ومما قاله في **الشعر الاجتماعي** على لسان اللغة العربية وما حل بها بين أهلها إهمالا لمنزلتها التي كان من الواجب أن تنالها بما لها من قدرة على التأقلم ومجاراة ما يستجد في عالم المعرفة، ويكفيها فضل أنها لغة القرآن الكريم:

رجعت لنفـــــــــسي فاتهمت حصاتي ونـاديت قومي فاحتسبت حيـــــــــاتي
رموني بعـــــــقم في الشباب وليتني عقمت فلم أجزع لقول عـــــــــداتي
أنا البحر في أحشائه الدر كـــــامن فهل سألوا الغواص عن صـــــدفاتي

ومن شعره الاجتماعي المطالب بتعليم النساء، يقول:

من لي تربية النســـــــــــاء فإنها في الشـــــرق علة ذلك الإخـــــفاق
الأم مدرســـــة إذا أعـــــــــددتها أعـــددت شعـــــــبا طيب الأعـــــــراق

وكتب أيضا في الشعر السياسي بما يمثله من أبعاد تجديدية خاصة بالمضمون الشعري المتعلق بقضايا الوطن ومعاناته من الاستعمار وآثاره السلبية، ومن ذلك قوله ناصحا قومه:

كونوا رجالا عاملـــــــــــين وكذبوا والصبح أبلج، حـــــــامل المصبـــاح
ودعـــــوا التخاذل في الأمور فإنما شبح التخاذل أنـــــــــكر الأشـــباح

مـــــــعروف الرصـــــافي (1875-1945):

شاعر وأكاديمي عراقي، ولد في بغداد من أب كردي النسب وأم تركمانية، كان والده يعمل في حكومة الدولة العثمانية، من الشعراء الذين عرفوا بنهجهم المحافظ على معمار القصيدة التقليدية وإيقاعها العروضي نذكر الشاعر معروف غير أنه ضمن بعضا من قصائده مضامين اجتماعية وأخرى وطنية محولة منه الارتباط بالواقع ومشكلاته، ومن ذلك قوله يصور ويصف في مشهد تصويري تفصيلي معاناة أرملة تيتم رضيعها بعد فقدان والده، فما وجدت إلا قارعة الطري مأوى لها بنحول جسدها وقلة حيلتها وفقرها المدقع، يقول:

فألفيت وجها خدَّد الدمع خدَّه ومحمر جفن بالبكـــا متورم
وجسما نحيفا أنهكته همومه فكادت تراه العين بعض توهم

حصل الرصافي على منزلة كبيرة وشأن عظيم، إذ لقب بـــ (شاعر العراق الأكبر)، فهو شاعر العراق في الصدارة من شعراء جيله، تميز بأفكاره التحررية والثورية وبآرائه في العدالة، وتحرير المرأة وعداوته للاستعمار. كان الرصافي صديقا لعدد كبير من الشعراء والمفكرين العرب.

ابتعد الرصافي عن وطنه العراق للبحث عن حياة أفضل هروبا من الفقر والحرمان في بداية حياته، فغادر بغداد سنة 1922، إلى بيروت وقرر ألا يعود ثانيا إلى العراق، لكن روحه كانت متعلقة بوطنه، يقول في شعره واصفا حاله بعد أن يريد الاقتراب من موطنه لكن الحوادث تبعده ويكثر شكواه من الدهر، فهو فلم من يواسيه في غربته:

هي المواطن أدنيها وتقصيني مثل الحوادث أبلوها وتبليني
قد طال شكواي من دهر أكابده أما أصادف حرا فيه يشكيني

ومن شعره الذي ضمنه معاني الحكمة قوله في قصيدته (نحن والماضي):

فشر العالمين ذوو خـــمـــول إذا ما فاخرتهم ذكروا الجـــــدودا
وخير الناس ذو حســـب قديم أقام لنفسه حسبا جـــــــــديـدا

وقرن في أبيات أخرى بين العلم والأخلاق في ارتباط للأبيات، على نمطيتها، بواقعها وما يتطلبه من ضرورة الاهتمام بالمعرفة بشتى أنواعها:

وليس الغني إلا غنى العلم إنه لنور الفتى يجلو ظلام افتقـــاره
ولا تحسبن العلم في الناس منجيا إذا انكبت أخلاقهم عن منـــــــاره